سمات الداعية

رؤية قرآنية لنموذج نوح عليه السلام

د/ حسين بن علي الزومي

أستاذ التفسير المشارك بقسم القرآن وعلومه

جامعة القصيم

مستخلص البحث:

تناول هذا البحث سمات الداعية من خلال رؤية قرآنية للسمات والصفات التي اتصف بها نبي الله نوح عليه السلام، وتمثلت مشكلة البحث في أن كثيراً من الدعاة إلى الله في زماننا هذا، هم بأشدّ الحاجة لاستلهام سمات الدعاة من القرآن الكريم، فجاء هذا البحث ليكشف سمات الداعية المستنبطة من قصة نوح عليه السلام، وكان الهدف هو توضيح مكانة نوح عليه السلام، وأهمية تدبّر قصته للدعاة إلى الله، وبيان السمات الفكرية والسلوكية والمهارية للداعية من خلال قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم؛ معتمداً في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي للآيات القرآنية الواردة في قصة نوح؛ وقد كان من أهم النتائج: أن كثيراً من المؤرخين يرون أن إدريس قبل نوح، وهذا غير صحيح، فلا رسول قبل نوح إلا آدم فقط، وأن اعتبار المآلات من أرقى أنواع استشراف المستقبل والتخطيط له، وأن على الداعية أن ملاحظة اختلاف طبائع الناس، وينوّع في أساليب دعوته بحسب حال المدعو، وأن يبدأ الداعية بالتوحيد، أياً كانت الظروف والأحوال التي يعيشها هذا المجتمع.

الكلمات المفتاحية: نوح عليه السلام؛ الدعوة؛ سمات الداعية؛ قصص القرآن.

Features Of The Preacher

Quranic study of the example of Noah peace be upon him

Dr. Hussein Ali Omar Alzomi
Associate Professor, Qassim University

Abstract:

This research dealt with the characteristics of the preacher through a Quranic vision of the features and attributes that characterized the Prophet Noah peace be upon him. The problem of the research was that many of the preachers in our time are in need for inspiration from the characteristics of the preachers from the Holy Quran. This research came to reveal the characteristics of the preacher derived from the story of Noah peace be upon him, and the goal was to clarify the position of Noah peace be upon him, and how important it is for preachers to understand his story, and to clarify the intellectual, behavioral and skill traits of the preacher through the story of Noah in the Holy Quran. Based on the analytical descriptive approach of the Qur'anic verses of the story of Noah. The most important results: that many historians believe that Idris is before Noah, and this is not true, there is no Messenger before Noah but Adam. And that the consideration of the Consequences is one of the finest types of prospecting and planning for the future, And that the preacher should note the different natures of the people, and changing the methods of calling according to the person called, And begins by calling for monotheism whatever the circumstances and conditions in which this society lives.

Keywords: Noah, features of the preacher, stories of the Quran.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

فلقد تبوأت القصة في القرآن مكانة عظيمة، وكان من أعظمها قصص الأنبياء عليهم السلام فهم رأس الصالحين وأئمة المتقين، وكان لزاماً علينا أن نعتني بسيرهم ونحضّ على الاقتداء بهم: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام، الآية ٩٠]. وجاءت قصة نوح عليه السلام لترسم لنا منهجا دعوياً قويما، يستلهم منه الدعاة طريق دعوتهم، وتضع لنا من وحي كتاب الله العظيم أصولاً في الدعوة صالحة لكل زمان ومكان.

إن ديننا العظيم يأمرنا بأن نؤمن بنوح عليه السلام وبكلّ الرسل والأنبياء الذين مارسوا الدعوة وطبقوها؛ بل إن عقيدتنا توضح لنا أنّ من كذب برسول من رسل الله فهو مكذب بالرسل أجمعين، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١٠٥]، مع أنهم لم يواجهوا بهذا التكذيب إلا رسولاً واحداً، وهو نبي الله نوح عليهم السلام؛ مما يدلّ على وحدة الدعوة، وترابطها ترابطاً وثيقاً، يجعل المصدق بواحد من الأنبياء مصدق بالجميع، والمكذب لواحد منهم مكذباً بالجميع.

وحُقّ للدعاة أن يقرؤوا خبر دعوة النبي الكريم نوح عليه السلام، ويأخذوا منها تلك السمات التي اتسم بها أبو البشرية الثاني، ويستلهموا تجربته الطويلة والعميقة في ممارسة الدعوة، لتكون منهاجاً لهم في طريق النجاح، حتى ولو لم يستجب لهم إلا القليل، ما دام أنهم على الطريق الرباني الصحيح، فإن عدم استجابة المدعوين للحق لا تعني بالضرورة تقصير الداعية؛ فهذا نوح عليه السلام دعا قومه أطول مدة دعا فيها رسول قومه – على ما أخبرنا به الله تعالى في كتابه– واستخدم معهم كل الوسائل، وفي الأخير، يقول سبحانه: ﴿... **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ [سورة هود، الآية ٤٠] ، "وَمَنْ آمَنَ قَالُوا: كَانُوا ثَمَانِينَ... وَذَكَرُوا مَا هُوَ

أَزْيَدُ مِنْهُ وَمَا هُوَ أَنْقَصُ مِنْهُ وَذَلِكَ مِمَّا لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا أَنَّ اللَّه تَعَالَى وَصَفَهُمْ بِالْقِلَّةِ[1]".

ولذلك جاء هذا البحث حاملاً لعنوانه الموسوم بـ: **سمات الداعية، رؤية قرآنية لنموذج نوح عليه السلام.**

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في أن كثيراً من الدعاة إلى الله في زماننا هذا، هم بأشدّ الحاجة للنظر في القرآن العظيم، واستلهام سمات الدعاة الكبار منه، وعلى رأسهم نبي الله نوح عليه السلام، فجاء هذا البحث ليكشف سمات الداعية المستنبطة من قصة نوح عليه السلام.

أسئلة البحث:

تتحدّد في الأسئلة الآتية:

- ما مكانة نوح عليه السلام؟ وما أهمية تدبّر قصته للدعاة إلى الله؟
- ما السمات الفكرية للداعية من خلال قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم؟
- ما السمات السلوكية للداعية من خلال قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم؟
- ما السمات المهاريّة للداعية من خلال قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم؟

هدف البحث:

هذا البحث يهدف إلى:

- توضيح مكانة نوح عليه السلام، وأهمية تدبّر قصته للدعاة إلى الله.

---

(١) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ط٣، (بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠ هـ)، ٣٤٨/١٧

- بيان السمات الفكرية للداعية من خلال قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم.
- بيان السمات السلوكية للداعية من خلال قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم.
- بيان السمات المهاريّة للداعية من خلال قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث من خلال النقاط التالية:

- مكانة القصص القرآني للأنبياء عليهم السلام، فهم منارات الهدى للعالمين؛ بلْه الدعاة إلى الله.
- علو شأن الأنبياء واصطفاء الله لهم، وعلى رأسهم أولوا العزم من الرسل، وأولهم نوح عليه السلام.
- شدة حاجة الدعاة إلى الله في هذا الزمن إلى الالتزام بسمات الأنبياء في دعوتهم.

الدراسات السابقة:

موضوع البحث جديد، ولم أجد ـ على قدر جهدي ـ من كتب فيه بحثاً أكاديمياً بشكل مستقل، إلا ما كان في ثنايا بعض الرسائل، أو المقالات المتفرقة، وهناك الكثير من الكتب قديماً وحديثاً مما أُلّف في قصص الأنبياء بإجمال، أو في قصة نوح من جوانب تاريخية أو في أحد قضايا التفسير الموضوعي التي لا تقترب من بحثنا، وهي كثيرة بالمئات، ناهيك عمّا ذكره المفسرون في ثنايا تفسيرهم للقرآن العظيم. وبالتالي فالبحث يتميّز بالجدّة في الطرح.

أما التأليفاتُ المفْرَدَة فبعد البحث والاطلاع على الدراسات الحديثة لم أجد على حد علمي القاصر من أفرد هذا الموضوع بالتأليف سوى هذه الدراسات:

– (**مناهج الدعوة وأساليبها ووسائلها من خلال سورة نوح**)، للباحثة: نورة محمد حسن عالم، وهي رسالة ماجستير، بجامعة القرآن الكريم بالسودان، في عام ٢٠٠٦م، وقد تحدثت فيه الباحثة عن المناهج والأساليب الدعوية، كما أنها لم تذكر من الأساليب سوى أربعة، واقتصرت في كل ذلك على سورة نوح، بينما بحثنا يهتم بالسمات والصفات من خلال كل المواضع التي ذكرت قصة نوح عليه السلام. وهو ما لم تتطرق له الباحثة.

– (**منهج نوح عليه السلام في الدعوة على ضوء القرآن الكريم**)، للباحث: صلاح جانيه، وهي رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية، في عام ١٤٠١هـ-١٩٨١م، وقد أفاض الباحث في الحديث عن قصة نوح عليه السلام من الجانب التاريخي أولاً، ثم حول الظروف العقدية والاجتماعية حين بعثة نوح عليه السلام، ثمّ أطال الحديث في ذكر أركان الدعوة ومنهجها من خلال قصة نوح عليه السلام، ولم يكن تركيزه على الصفات والسمات الدعوية، أما بحثي هذا فهو يهتم بذكر السمات وتسليط الضوء عليها وإبرازها.

منهج البحث:

اعتمدنا في هذا البحث على:

- المنهج الوصفي التحليلي للآيات القرآنية الواردة في قصة نوح: والذي يقوم بوصف مقالات العلماء ومناقشتها وتصنيفها، ومن ثم تفسير الآيات وتحليلها ودراستها واستنباط المعاني الصحيحة لاستخراج السمات الدعوية عبر النصوص القرآنية الواردة في نوح عليه السلام ودعوته.

خطة البحث:

تتكون الدراسة من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

– **المقدمة**: وفيها بيان مشكلة البحث، وأهمية موضوع البحث، وأهدافه، والمنهج المتبع فيه، وخطة الدراسة.

– **مباحث الدراسة**:

التمهيد: ويشتمل على الآتي:

المطلب الأول: شخصية نوح

المطلب الثاني: قصة نوح عليه السلام في القرآن

المبحث الأول: السمات الفكرية، ويشتمل على الآتي:

١/ التوحيد أساس الفطرة والفكرة

٢/ التوكل

٣/ بُعْد النظر واعتبار المآلات

المبحث الثاني: سمات سلوكية، ويشتمل على الآتي:

١/ الصبر

٢/ التواضع

٣/ الدعاء والالتجاء لربّ السماء

٤/ اللين في القول والمعاملة

٥/ الفصاحة والبيان

المبحث الثالث: السمات المهارية، ويشتمل على الآتي:

١/ التبشير والإنذار

٢/ التنويع في أساليب الدعوة

٣/ الزهد عمّا في أيدي الناس

٤/ البدء بالأهم من الأولويات

٥/ الحوار الفعّال والإقناع

٦/ الشجاعة والمصارحة بالحق

٧/ احترام أهل التقوى بدون تقديس

٨/ روح التحدّي والمجابهة

٩/ الحرص على دعوة الأقربين

الخاتمة: وفيها بيان أهم النتائج التي توصلتُ إليها.

تمهيد

المطلب الأول: شخصية نوح

نوح عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، "وَكَانَ أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَبَدة الْأَصْنَامِ"[(١)] بعد أن مكث الناس زمنا طويلا على الهدى ثم اختلفوا وزيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم فضلوا وأضلوا. ويشهد لأوليته حديث الشفاعة الكبرى يوم القيامة حين يأتي الناس إلى الأنبياء عليهم السلام ليشفعوا لهم عند ربهم، فعندما جاؤوا نوحاً عليه السلام قالوا: {... يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكورا، أما ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك؟...}[(٢)].

وقد اشتهر عند كثير من المؤرخين أن إدريس قبل نوح، وهذا غير صحيح، لأن الله تعالى قال: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [النساء: ١٦٣]، وإدريس من النبيين، ويقول سبحانه: {واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً} إلى أن قال: {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح} [مريم: ٥٦-٥٨]، ويقول سبحانه: {ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب} [الحديد: ٢٦]، ولما ورد في حديث الشفاعة السابق، فلا رسول قبل نوح إلا آدم فقط. ولذلك قال ابن العربي: " ومن قال من المؤرخين: إن إدريس كان قبله فقد وهم[(٣)]".

---

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، **البداية والنهاية**، (دار الفكر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م)، ٣١٦/٤

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم}، ١٣٤،٣٣٤٠/٤

(٣) ابن العربي، محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الإشبيلي، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م)، ٥٦٧/١

وقد جعله سبحانه وتعالى من أولي العزم من الرسل، يقول سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة الأحقاف، الآية ٣٥]، قال الشنقيطي في أضواء البيان:" اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافا كثيرا، وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة...، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد – عليهم الصلاة والسلام –"(١).

وأما **نسبه** فقد اختلفوا فيه اختلافاً كبيرا، وأكثر ما جاءنا عن طريق أهل الكتاب في ذلك، والذي ذكره ابن كثير ومعظم مؤرخي أهل الإسلام أنه: " نُوحُ بْنُ لَامَكَ بْنِ مَتُّوشَلَخَ بْنِ خنوخ. وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش ابن شِيثَ بْنِ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَوْلِدُهُ بَعْدَ وَفَاةِ آدَمَ بِمِائَةِ سَنَةٍ وَسِتٍّ وَعِشْرِينَ سَنَةً "(٢)، وزعمهم بأن (خنوخ) أو (أخنوخ) هو نفسه النبي إدريس عليه السلام مخالف لما ذكرته سابقا من أدلة القرآن والسنة من أن إدريس ما جاء إلا من بعد نوح عليهما جميعا الصلاة والسلام.

وأما **عمره** فلا ندري كم كان بالتحديد، ألا أننا نعلم يقيناً أنه مكث في دعوة قومه ٩٥٠ عاماً، أما قبل ذلك، وبعد أن أخذهم الطوفان فلا نعلم كم عاش، حيث كان الأقوام يعيشون فترة طويلة الزمن ممتدة العمر، " وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما يقول سبحانه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما "(٣).

وبعد انتهاء نوح عليه السلام من صنع السفينة، بدأت علامات العذاب تظهر، وأرسل الله – عز وجل– مطراً غزيراً لم تعهد الأرض قبله، كأنه أفواه القرب، وأمر الأرض بأن تتفجر فيها

(١) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، (دار الفكر، بيروت – لبنان، ط ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م)، ٢٤١/٧

(٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠١/١

(٣) ابن كثير، المرجع السابق، ١٠٨/١

المياه، فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها، فاجتمع ماء السماء وماء الأرض؛ ليحصل جرّاء ذلك الطوفان العظيم الذي قدره الله لهلاك الكافرين، يقول سبحانه: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [سورة القمر، الآيتان ١١و ١٢.]، قال ابن كثير:" قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}. قَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْكَثِيرُ {وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا} أَيْ: نَبَعَتْ جميعُ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ، حَتَّى التَّنَانِيرُ الَّتِي هِيَ مَحَالُّ النِّيرَانِ نَبَعَتْ عُيُونًا، {فَالْتَقَى الْمَاءُ} أَيْ: مِنَ السَّمَاءِ وَمِنَ الْأَرْضِ {عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} أَيْ: أَمْرٌ مُقَدَّرٌ."[1] فأمر الله – عز وجل– نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كلّ صنف من الأحياء والحيوانات زوجين، ذكراً وأنثى، لأجل أن تبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض، كذلك أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة جميع أهله وأقاربه باستثناء من كفر منهم بالله، كما أمره أن يحمل معه المؤمنين من غير أقاربه، وقد كانوا قلة، يقول سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [سورة هود، الآية ٤٠]، ورد "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: التَّنُّورُ: وَجْهُ الْأَرْضِ، أَيْ: صَارَتِ الْأَرْضُ عُيُونًا تَفُورُ، حَتَّى فَارَ الْمَاءُ مِنَ التَّنَانِيرِ الَّتِي هِيَ مَكَانُ النَّارِ، صَارَتْ تَفُورُ مَاءً، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ الْخَلَفِ."[2]

ثم استوت السفينة على جبل الجودي، ورست السفينة عند ذلك الجبل، وأمر الله نوحاً عليه السلام أن ينزل منها إلى الأرض، فهبط عليه السلام هو ومن آمن معه وذرياتهم ممن ستنالهم بركة الله، كما أخبر سبحانه أن منهم من سينحرفون عن جادة الحق، وسيغويهم الشيطان، ويؤدي بهم إلى عذاب الله في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة هود، الآية ٤٨].

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، المحقق: سامي بن محمد سلامة (دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م)، ٤٧٦/٧

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ٣٢٠/٤

وبذلك انتهت قصة هؤلاء الكافرين الذين لم يستجيبوا لأمر نبيهم، بل فضلوا الخضوع للأصنام عن الخضوع لرب الأنام. والعاقل من اتعظ بغيره؛ فقد دعانا الله تعالى أن ننظر كيف كانت عاقبة المنذَرين، قال الطبري في تفسيره:" فتأمل وتبين كيف كان غِبُّ أمر الذين أنذرتهم أنبياؤنا، وإلام صار أمرهم، وما الذي أعقبهم كفرهم بالله، ألم نهلكهم فنصيرهم للعباد عبرة ولمن بعدهم عظة؟"[1].

(١) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، المحقق: أحمد محمد شاكر، **جامع البيان في تأويل القرآن**، (مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م)، ٥٧/٢١

المطلب الثاني: قصة نوح عليه السلام في القرآن

تعتبر القصة من أنفع وسائل وأساليب التربية في القرآن، نظرا لما جبلت عليه النفوس من الميل إلى سماع الحكاية والإصغاء إلى رواية القصص. إذ تحدث القصة أثرها في النفس مع الشعور بالمتعة، وتجعل الإنسان ينجذب إليها وينتبه إلى أحداثها.

ولقد اعتنى الله تعالى بالقصص غاية العناية؛ "فالقصص القرآني لا يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد قليلا... فإن القصص يبلغ الثمانية أجزاء من هذا الكتاب الخالد"(١).

ولهذا، يكثر الاعتماد على القصة في القرآن الكريم إلى حد بعيد، حيث نجد فيه قصص الأنبياء مع أقوامهم، أمثال نوح وإبراهيم ولوط وصالح وهود وموسى وعيسى ومحمد عليهم صلوات ربي وسلامه، كما نجد فيه قصص غير الأنبياء من المؤمنين أمثال أصحاب الكهف وذي القرنين وأصحاب الأخدود، ومن العصاة أمثال قارون وأصحاب السبت.

أما عن الغرض أو الأغراض من القصص القرآني فهي كثيرة متعددة، "فإثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله، وتوحد الأديان في أساسها، والإنذار والتبشير، ومظاهر القدرة الإلهية، وعاقبة الخير والشر، والعجلة والتريث، والصبر والجزع، والشكر والبطر، وكثير غيرها من الأغراض الدينية، والمرامي الخلقية، قد تناولته القصة، وكانت أداة له وسبيلًا إليه."(٢).

إن القصة القرآنية محكمة لا تشوبها شوائب القصة الأدبية فهي تنفذ إلى النفوس بسهولة ويسر فتطرق لها المسامع وتستوعبها العقول فلا تملها ولا تستنكرها، وهي من أهم العوامل

(١) فضل، حسن عباس، **القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته** (دار الفرقان، ط١، ١٩٨٧) ص١٠

(٢) سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ط ١٦، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م)، ص ١٤٤

النفسية تأثيرًا في فكر الإنسان وسلوكه وأخلاقه ذلك لأن النفوس تطمئن للقصة القرآنية وتُقبل عليها وترنو لمعرفة تفاصيلها لما تختص به دون غيرها من القصص.

كما أن القصص القرآني أصدق القصص؛ فلا يشوبه شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع كما يحدث في غيره من القصص، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٢]، ويقول سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٠] ومعنى الكلام : "وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك في سائر سور القرآن أو إلى ما جاءك من الحق في سائر سور القرآن لا أن معناه : وجاءك في هذه السورة الحق دون سائر سور القرآن"(١) .

والغاية من قصّها علينا أن نحذر مما وقعوا فيه من أمور أوردتهم المهالك وعاقبة السوء فننجوا باتّباع الحق واقتفاء هدي الرسل عليهم السلام، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يوسف: الآية ١١١] أي "جاءك موعظة تعظ الجاهلين بالله وتبين لهم عبره ممن كفر به وكذب رسله، وذكرى للمؤمنين: تذكرة تذّكر المؤمنين بالله ورسله كي لا يغفلوا عن الواجب لله عليهم"(٢)، وعلى جميع من يسمع القصص القرآني أن يتفكر فيها ويعتبر بأحداثها، يقول سبحانه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٦].

فالقرآن الكريم أخبر بقصص الأولين حتى تُؤخذ منها العبر، وأخذ العبرة من أهم ما ينتفع به الانسان، إذ أن العبرة "تعرف بأنها حالة نفسية تتيح للمرء معرفة المغزى والمآل لأمر ما يشاهده الإنسان ويتبصر فيه ويتدبره ويقوم باستقرائه ومقايسته فيصل إلى نتيجة مؤثرة يخشع

(١) الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ٥٤٣/١٥
(٢) الطبري، المرجع السابق، ٥٤٣/١٥

لها قلبه"[1]، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية ١١١].

كما أن سرد قصص الأنبياء ما جاء إلا ليكونوا قدوة وأسوة، والمشي على طريقهم وهداهم. وذلك لما للقدوة من تأثير في النفوس. يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١]، وقال جلّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: ٦]، ويقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام، الآيتان: ٨٩-٩٠].

وعلى الداعية اختيار "النماذج الإنسانية ذات التجارب المفعمة بألوان الكفاح لتكون قدوة يقتدى بها"[2] فالله تعالى أخبر نبيه ﷺ أنه قص عليه قصة نوح عليه السلام ليكون له قدوة في الصبر، يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة هود، الآية ٤٩]. ولذلك جاء عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِناً، ولا يأكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقيٌّ"، رواه أبو داود[3]

(١) السيد، عاطف، **التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمه**. القاهرة: دار الكتاب الحديث، ص ٥٥

(٢) الفورتيه، أحمد جهان، **القرآن أصل التربية وعلم النفس**، (دار الملتقى للنشر، الطبعة الاولى ١٩٩٤م)، ص ٨

(٣) **سنن أبي داود**، أول كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ٢٠٣/٧، رقم الحديث ٤٨٣٢. وحسنه شعيب الأرنؤوط

ولقد جاءت قصة نوح عليه السلام متفرقة في القرآن بخلاف بعض القصص الأخرى كقصة يوسف عليه السلام في سورة يوسف، وهذا هو غالب القصص القرآني، فيذكر الله تعالى في كل موضع الجزء من القصة الذي يخدم الغرض منه في ذاك الموضع، وبجمع تلك المواضع تكتمل عندنا القصة بجميع أجزاءها.

فبدأ الله تعالى بتنزيل القصة عامة من غير ذكر التفاصيل في سورة القمر، وإنما ذكر فيها خاتمة قوم نوح عليه السلام وأن الله تعالى أهلكهم بسبب تكذيبهم لنبيهم، وقد ناسب ذكر ذلك ذكر تكذيب كفار قريش للنبي ﷺ في بداية السورة. ثم أنزل الله تعالى، في سورتي الأعراف والشعراء، ما فيه ذكر الشبه التي اتُّهم بها نوح عليه السلام ورده عليها وهي مشابهة للشبه التي كان كفار قريش يتهمون بها النبي ﷺ وذلك للتخفيف عنه وتثبيته ﷺ. ثم أنزل سبحانه في سورة يونس تحدّي نوح عليه السلام لقومه في مقابل عنادهم. ثم أردفها بسورة هود ففصّل فيها القصة أكثر، وذكر سبحانه جدال نوح عليه السلام لقومه. وتأتي سورة الصافات بعد ذلك لتبين مكانة نوح عليه السلام عند ربه وسرعة استجابته له بإهلاك المفسدين من قومه. ويفصل القول سبحانه وتعالى بعد ذلك في سورة نوح عليه السلام فيضيف بعض التفاصيل التي لم تذكر من قبل كأسماء الأصنام التي كان يعبدها القوم من دون الله. وهكذا يتوالى نزول السور التي تضيف بعض الجزئيات للقصة لتكتمل الصورة بالنهاية.

ولا تخوض الآيات في التفاصيل حتى لا يفقد السامع تركيزه؛ ففي قصة نوح عليه السلام لم تذكر أسماء الشخصيات كابنه الذي كفر أو زوجه التي أهلكها الله تعالى؛ لأن المنهج القرآني" يركز على عنصر التوجيه الهادف والعظة المؤثرة دون أن يخوض في التفاصيل الأخرى التي تتعلق مثلا بتحديد المكان والوقت والاسم؛ لأن الخوض في مثل هذه الأمور قد يبعد المتعلم عن الهدف الأساسي من الدرس" [1].

(١) الفورتيه، مرجع سابق، ص ٣٦

المبحث الأول
السمات الفكرية

١/ التوحيد أساس الفطرة والفكرة:

منذ هبوط آدم إلى الأرض كان الناس على دين التوحيد والفطرة، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على التوحيد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "كَانَ بَيْنَ آدَمَ، وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ فَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً"(١) ثم ما لبث أن بدأ الشرك يسري في جسد القوم؛ فبعد أن مات رجال صالحون من قوم نوح عليه السلام، اتفقوا على أن يجعلوا لهم تماثيل تذكرهم بعبادتهم وتعينهم عليها، لكن خلفهم قوم طال عليهم الأمد فظنوا أن أسلافهم كانوا يعبدون تلك التماثيل، فتواصوا بينهم أن عضّوا عليها بالنواجد؛ يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح، الآية ٢٣]. وجاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ؛ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَت"(٢).

---

(١) المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشورى، ٢/٢٨٠، رقم الحديث ٣٦٥٤. قال الحاكم:" هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ "

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {ودا ولا سواعا، ولا يغوث ويعوق}، ٦/١٦٠، الحديث رقم٤٩٢٠

واستمرّ الناس على ذلك ردحاً من الزمن، "فلما بعث الله نوحاً عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن لا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته"(١)، إلا أن للموروثات الاجتماعية دور هام في الطابع العام للمجتمع؛ فقوم نوح عليه السلام صعب عليهم ترك ما ورثوه عن آبائهم رغم أنه باطل، قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَاتَذَرُنَّ وَدًّا وَلَاسُوَاعًا وَلَايَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح، الآية ٢٣] . ورصيد الفطرة الإنسانية من أعظم ما يعين الداعية في دعوته لهذا الركن الركين، والأساس العظيم، لأن التوحيد هو الأصل فيها، وهو أول بداية خلق الإنسان، وظهوره ومولده على البسيطة.

٢/ **التوكل**:

على الداعية الصادق أن يتوكل على الله تعالى أثناء تبليغ رسالته، وألا يغتر بنفسه أو بفهمه؛ فنوح عليه السلام قال:﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [سورة يونس، الآية ٧١]. وأن يوقن الداعية أن الهداية من الله تعالى، وأنه سبحانه هو الكفيل بإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد، وأن الداعية مهما عمل فلا سلطان له على قلوب البشر؛ فنوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة يدعوهم بشتى الوسائل وفي كل الأوقات، وفي النهاية يقول سبحانه: ﴿... وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [سورة هود، الآية ٤٠].

وعلى الداعية أن يفوض أمره دوما لله تعالى بعد الأخذ بالأسباب؛ فالله تعالى أمر بصنع السفينة ففوض نوح عليه السلام أمره له سبحانه وشرع في صنعها وترك النتيجة لمولاه، كل ذاك بعد الأخذ بالأسباب؛ ولو شاء الله لأنجى المؤمنين بلا سفينة، لكنه سبحانه أمرهم بصنعها أخذا بالأسباب، يقول سبحانه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [سورة هود، الآية ٣٧]، قال الرازي: " أَخْبَرَ الْقَوْمَ بِأَنَّ السَّفِينَةَ لَيْسَتْ سَبَبًا لِحُصُولِ النَّجَاةِ بَلِ الْوَاجِبُ رَبْطُ الْهِمَّةِ وَتَعْلِيقُ الْقَلْبِ بِفَضْلِ اللَّه تَعَالَى".

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠٧/١

إن ما فعله نوح عليه السلام كان هو خالص الانقياد لأمر الله تعالى ولو كان ظاهره مخالف للعقل؛ فصنع سفينة في البر بعيدا عن البحر بمسافات كبيرة ضرب من الجنون، لكن عقول الناس قاصرة عن إدراك النهايات؛ فكان الأسلم اتباع الذي يعلم السر وأخفى.

وعلى الداعية التعلق بالله تعالى في كل أموره، وأن يبدأ فيها بذكره سبحانه، فنوح عليه السلام أمر من معه عند ركوب السفينة أن يقولوا :(بسم الله)، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة هود، الآية ٤١]، فحرف الباء للاستعانة، و" الْإِنْسَانَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْرَعَ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا وَيَكُونُ فِي وَقْتِ الشُّرُوعِ فِيهِ ذَاكِرًا لِاسْمِ اللَّه تَعَالَى بِالْأَذْكَارِ الْمُقَدَّسَةِ حَتَّى يَكُونَ بِبَرَكَةِ ذَلِكَ الذِّكْرِ سَبَبًا لِتَمَامِ ذَلِكَ الْمَقْصُودِ."[(١)].

كما أن في قوله تعالى:" إن ربي لغفور رحيم " درس، وهو أنه سبحانه هو القادر على الإنجاء برحمته وغفرانه، قال الرازي:" لَعَلَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ رَكِبُوا السَّفِينَةَ اعْتَقَدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّا إِنَّمَا نَجَوْنَا بِبَرَكَةِ عِلْمِنَا فاللَّه تَعَالَى نَبَّهَهُمْ بِهَذَا الْكَلَامِ لِإِزَالَةِ ذَلِكَ الْعجب مِنْهُمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْفَكُّ عَنْ أَنْوَاعِ الزَّلَّاتِ وَظُلُمَاتِ الشَّهَوَاتِ، وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى إِعَانَةِ اللَّه وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَنْ يَكُونَ رحيما لعقوبته غفورا لذنوبه"[(٢)].

٣/ بُعْد النظر واعتبار المآلات:

ويقصد به "الحكم على مقدمات التصرفات بالنظر إلى نتائجها [(٣)]"، ومعناه أنَّ الداعية لا يقوم بالحكم على التصرف قولاً كان ذلك التصرف أو فعلاً إلاَّ بعد أن ينظر في مآله ونتائجه ويقدر ما سيتمخض عنه تطبيق ذلك التصرف، وإن كانت البدايات ظاهرها الخير،

(١) الرازي، مرجع سابق، ٣٤٩/١٧

(٢) الرازي، مرجع سابق، ٣٥٠/١٧

(٣) السنوسي، عبد الرحمن بن معمر، **اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات دراسة مقارنة في أصول الفقه ومقاصد الشريعة**، ط١، (دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٢٤هـ) ص١٩

فيقطع دابر ما قد يفسد المدعو؛ فبداية شرّ الشرك بدأ بما ظاهره الخير، حيث أرادوا تذكر القوم الصالحين والتأسي بهم. قال الرازي في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٦٨] : " لِأَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُلْقِي إِلَى الْمَرْءِ مَا يَجْرِي مَجْرَى الشُّبْهَةِ فَيُزَيِّنُ بِذَلِكَ مَا لَا يَحِلُّ لَهُ فَزَجَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ بَيَّنَ الْعِلَّةَ فِي هَذَا التَّحْذِيرِ، وهو كونه عدوا مبينا أَيْ مُتَظَاهِرٌ بِالْعَدَاوَةِ"[(١)] ، فعلى الداعية التنبه لخطوات الشيطان لأن الشيطان لا يكلّ ولا يمل؛ فقد عمل طوال القرون العشرة ما بين آدم ونوح على غواية الناس حتى وصل إلى مراده، وهذا دأبه إلى يوم الدين.

وبدون معرفة المآلات والعواقب، التي تترتب على تنزيل الحكم على الواقع، يغيب الفقه الحقيقي في الدين، ويُساء التطبيق، ويُتَعَسَّفُ فيه، ويُعْبَثُ بالأحكام الشرعية، الأمر الذي يؤدي إلى العنت، وغياب الأهداف والمقاصد، التي من أجل تحقيقها جاءت الشريعة.

وتعتبر معرفة المآلات من أرقى أنواع استشراف المستقبل والتخطيط له، كما أنه يعين الداعية في باب سد الذرائع، لأنّ الذريعة في نفسها غير ممنوعة، لكن يخشى من فعلها أن تجرّ مستقبلا للوقوع في ممنوع أو محظور.

(١) الرازي، المرجع السابق، ١٦٨/٥

المبحث الثاني
سمات سلوكية

١/ الصبر:

وصل الأذى بنوح عليه السلام إلى مرحلة الابتلاء الكبير، حتى "قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمْ يَلْقَ نَبِيٌّ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى مِثْلَ نُوحٍ إِلَّا نَبِيٌّ قُتِلَ. وَقَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ: إِنَّمَا سُمِّيَ نوحاً لِكَثْرَةِ مَا نَاحَ عَلَى نَفْسِهِ"[(١)]، فالكفار في زمنه مكروا مكرا كبارا حتى يمنعوا الناس عن الإيمان، ومردوا على الشرك وتواصوا على الصبر على آلهتهم الباطلة، وأبوا أن يرجعوا إلى الحق، يقول سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح، الآيتان ٢٢ و ٢٣]، ومع هذا المكر الكبّار فقد صبر نوح عليه السلام وهو يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما.

وأساليب أهل الباطل لمقاومة أهل الحق تتكرر على مر العصور والأزمان، وهي أربعة أساليب: استخدام القوة والتهديد أو السخرية والاستهزاء أو الاتهامات المغرضة أو الشبهات الباطلة، يقول ابن القيم: "وهذا شأن المبطلين إذا غلبوا وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة"[(٢)]؛ فكانوا يهددون نوحاً بالرجم حينا وحينا يستهزؤون به كما فعلوا أثناء صنعه للسفينة، وحينا يصفونه بالجنون والضلال...الخ قاموس المستبدين والطغاة، وتفصيل الأساليب كالآتي:

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ٤٣١/٣

(٢) ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، (الكويت: دار العروبة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، ط٢، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، ص٢٧٥

أ) الاتهام:

فقد بدأ الملأ المجرمون في مجادلة نوح عليه السلام واتهامه بما ليس فيه، كل ذلك ونوح عليه السلام صابر يشفق على قومه من عذاب الله، فقد اتَّهموه بالضلال في بداية الأمر، يقول سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠]، واتَّهموه بالجنون كما ورد في سورة المؤمنون: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، و(الجِنّة) إما مصدر، أي به جنون، أو مفرد الجن، أي حلّ به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدّعي ما لا يقبله العقل السليم، ويقول ما لا يقوله إلا مصاب في عقله فتربصوا وانتظروا به إلى حين ما؛ لعله يفيق من حالة جنونه أو يموت فنستريح منه[1]، وفي سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩]. واتَّهموه بالكذب كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

إن الداعية معرّض –في الغالب– للاتهام والتشهير، لكن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا؛ فقد رموا نوحاً عليه السلام بالجنون، فردّ الله تعالى عليهم بأنه عبد له سبحانه، ووصف الله نوحاً عليه السلام بالعبودية في أعظم أحواله حين نصره الله على من كذبه من قومه، يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [سورة القمر، الآية ٩]. وفي ذلك إشارة أن الله تعالى لو اتخذ عبدا مجنونا لكان ذلك طعنا في حقه سبحانه، قال الرازي:" كَثِيرًا مَا يَخُصُّ اللَّهُ الصَّالِحِينَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِهِ ... وقَوْلُهُ عَبْدَنَا أَدلُّ عَلَى صِدْقِهِ وَقُبْحِ تَكْذِيبِهِمْ مِنْ قَوْلِهِ رَسُولَنَا لَوْ قَالَهُ لَأَنَّ الْعَبْدَ أَقَلُّ تَحْرِيفًا لِكَلَامِ السَّيِّدِ مِنَ الرَّسُولِ"[2].

(١) الطباطبائي، محمد حسين، **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات–بيروت، ١٤١٧هـ، ٢٩/١٥

(٢) الرازي، مرجع سابق، ٢٩٣/٢٩

ب) التهديد:

وصل الأمر بقومه الفاسدين أن يتوعدوه بالرجم، يقول سبحانه: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾. ولكن سنة الله هي وجوب نصرة المظلوم ولو بعد حين، كما نجى الله نوحاً عليه السلام ومن معه من ظلم الكافرين الذين هددوه بالرجم، يقول سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ / تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [سورة القمر، الآيتان ١٣ و ١٤]. قال الرازي:" كَانَ ذَلِكَ جَزَاءً عَلَى مَا كَفَرُوا بِهِ لَا عَلَى إِيمَانِهِ وَشُكْرِهِ فَمَا جُوزِيَ بِهِ كَانَ جَزَاءَ صَبْرِهِ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَأَمَّا جَزَاءُ شُكْرِهِ لَنَا فَبَاقٍ"(١).

ت) الاستهزاء:

حينما شرع نوح عليه السلام في صنع السفينة، بدأ قومه يستهزؤون به قائلين له: هل تحولت من داع إلى الله إلى نجّار، وماذا تقصد بهذه السفينة؟ وأين الماء الذي سيحملها وهي في البر بعيدة عن البحر؟

وكان عليه السلام إزاء سخريتهم يقول لهم: إن كنتم تهزؤون بي وبمن معي من الذين آمنوا، فإننا سنهزأ بكم عما قريب، وسوف تعلمون من سيأتيه عذاب يذله في الدنيا، كما سيحلّ عليه في الآخرة عذاب دائم، يقول سبحانه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ/ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [سورة هود، الآيتان ٣٨ و ٣٩].

إنها العاقبة الحميدة للصبر الجميل، فمهما طال الظلم يجب أن يعقبه فرج، فبعد ألف سنة إلا خمسين عاما أنجى الله المؤمنين من ظلم الكافرين، وجعلها آية للعالمين إلى يوم الدين، يقول سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [سورة يونس، الآية ٧٣]. وإذا صبر العبد على المصيبة التي تحلّ به، ازداد بذلك إيمانا، فنوح عليه السلام بعد ما لاقاه من كفر قومه وبعض أهل

(١) الرازي، مرجع سابق، ٢٩٨/٢٩

بيته وصبره على ذلك أثنى الله تعالى عليه، يقول سبحانه:﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ / إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ / إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الصافات، من الآية ٧٩ إلى الآية ٨١]، قال الطبري:" أمَنَة من الله لنوح عليه السلام في العالمين أن يذكره أحد بسوء"[(١)].

ث) إثارة الشبهات:

عندما تقدم نوح عليه السلام برسالته إلى قومه صدوه وطعنوا في دعوته بأمور ثلاثة: الأول: قولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾. والثاني: قولهم: ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾. والثالث: قولهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾. ونلاحظ أن هذه الشبهات قائمة على الرأي الفاسد، الذي ينمّ عن تكبّر واستبداد في الرأي وتعظيم الأنا، فقد جاءت العبارات والألفاظ كالتالي: (نراك– نرى).

وحاصل طعن الملأ في نبوَّة نوح عليه السلام بالثلاثة المذكورة من أنواع الشبهات: الأولى: أنه بشر، وأنه لا يعدوا أن يكون من جنس بني آدم، ولو شاء الله تعالى أن يرسل رسولا لأرسل ملائكة. أما الثانية: فكونه ما اتَّبعه إلا أراذل من القوم، كالحياكة وأهل الصنائع، قالوا: ولو كنت صادقًا، لاتَّبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم. ونظيره قولُه تعالى: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]. والشبهة الثالثة: لا نرى لكم علينا من فضل؛ لا في العقل، ولا في رعاية المصالح العاجلة، ولا في قوة الجدل [(٢)]. أما الرد على هذه الاتهامات وتلك الشبهات، فقد سجَّله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٨ –٣٠].

(١) الطبري، مرجع سابق، ٦٠/٢١

(٢) الرازي، مرجع سابق، ٥٠٧/٨

وهذه حجج مختلقة ألقاها ملأ قومه إلى عامتهم، وهي وإن كانت حججا جدلية مدخولة لكنهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها إلى الناس فيصرفون وجوههم عنه ويغرونهم عليه ويمدون في ضلالهم [1].

٢/ التواضع:

إن الكمال المطلق لله وحده، ولا شك أن الداعية قد يخطئ وأنه قد يحتاج لغيره، فنوح عليه السلام نفى عن نفسه الغنى المطلق وعلم الغيب، قال الرازي:" وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنِّي لَا أَدَّعِي الِاسْتِغْنَاءَ الْمُطْلَقَ، وَثَانِيهَا: الْعِلْمُ التَّامُّ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَثَالِثُهَا: الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ الْكَامِلَةُ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْخَوَاطِرِ أَنَّ أَكْمَلَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ هُمُ الْمَلَائِكَةُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَالْمَقْصُودُ من ذكر هذه الأمور الثلاثة بيان أنه مَا حَصَلَ عِنْدِي مِنْ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثَةِ إِلَّا مَا يَلِيقُ بِالْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَالطَّاقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَأَمَّا الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ فَأَنَا لَا أَدَّعِيهِ"[2].

كما أن الرجوع إلى الحق فضيلة من الفضائل المهمة للداعية، فبعد أن عاتب الله تعالى نوحاً عليه السلام رجع وأناب، يقول سبحانه: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ / قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة هود، الآيتان ٤٦ و ٤٧]، فما أن عرف نوح عليه السلام الخطأ في طلب المغفرة لابنه الكافر حتى رجع واستغفر، ولم يجادل ويتكبر.

ولقد كان نوح عليه السلام في قمة التواضع وهو يصنع السفينة بنفسه ولم يأمر أحدا من أتباعه بذلك. {ويصنع الفلك...}، فعلى الداعية أن يتواضع ويحرص على إقامة عمله بنفسه، لا أن يتسلط على المدعوين بإنجاز عمله.

(١) الطباطبائي، مرجع سابق، ٢٩/١٥

(٢) الرازي، مرجع سابق، ٣٤٠/١٧

إن التكبر لا يأتي بخير؛ فقد كان سببا لكفر الملأ من قوم نوح عليه السلام، يقول سبحانه: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية ١١١]، بل هو سبب كفر كثير من الأمم، فصدهم التكبر وازدراء المؤمنين عن الإيمان، تلك عادة الملأ الكبراء، الذين غالبا ما يكون الترف قد أثقلهم فكان سببا من أسباب الصد عن سبيل الله وعدم الإيمان به، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية ٣٣]. أما الضعفاء والأتباع فقد سارعوا باتباع أصحاب المال والجاه وتركوا الحق، يقول سبحانه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [سورة نوح، الآية ٢١].

ومع كل ما بذله نوح عليه السلام وقدمه من أجل الدعوة، ومع ذلك سيأتي قومه يوم القيامة وهم يجحدون وينكرون دعوته لهم؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ لاَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. وَالوَسَطُ العَدْلُ[1]}.

٣/ الدعاء والالتجاء لربّ السماء:

بعد أن ضاق نوح عليه السلام ذرعاً بقومه لجأ إلى ربه مستغيثاً به مما يلاقي من قومه من إعراض، فقال: يا رب إني دعوت قومي للإيمان بك، وترك عبادة الأصنام، وقد حرصت على ذلك غاية الحرص، فلم أدع وقتا مناسباً إلا وقد دعوتهم فيه، سواء في الليل أو النهار، لكن لم يزدهم حرصي ودعوتي لهم إلا تمرداً وعصياناً، ثم إني دعوتهم مرة بعد أخرى بأساليب مختلفة، فحيناً أدعوهم جهراً في مجتمعاتهم، وحيناً أنفرد ببعضهم سراً، وتبين لنوح عليه السلام أن هؤلاء لا

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم}، ١٣٤/٤، الحديث رقم ٣٣٣٩

تنفعهم دعوة، وأنهم إن تُركوا متمادين في ضلالهم أضلوا غيرهم عن الحق، ونشروا آثامهم، وانتقل فسادهم إلى ذريتهم بالوراثة، فهم لا يلدون إلا من كان على شاكلتهم في الكفر والفجور، ونادى نوح ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآيتان ١١٧و١١٨].

ثم دعا عليهم بالهلاك وأن لا يترك على الأرض منهم أحداً، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [سورة نوح، الآية ٢٦]. وقد يتعجب البعض من دعاء نوح عليه السلام على قومه وهو ما جاء إلا لإخراجهم من الظلمات إلى النور ولإنقاذهم من النار؛ فالجواب أن الله تعالى قد أوحى لنبيه عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن وأن البقية سيبقون على الكفر، حينها دعا نوح عليه السلام عليهم حتى لا يفتنوا المؤمنين في دينهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بالمقابل حتى لا يزداد عدد الكفار، يقول سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة هود، الآية ٣٦].

وقد وصل بهم الحال حتى كان الآباء يُوصُون أبناءهم بالتمسُّك بعبادة الأصنام وعدم التخلِّي عنها، وعلِم ذلك نوحٌ عليه السلام؛ وقال في دعائه: ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧]. يقول الرازي: "وكان الرجل منهم ينطلقُ بابنِه إليه، ويقول: احذر هذا؛ فإنه كذَّاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك [(١)]". كما أن في شكوى نوح لربه دليل على "جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس... إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقا"[(٢)]، يقول سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[سورة القمر: ١٠].

(١) الرازي، مرجع سابق، ٧٥٢/١٠

(٢) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، ط١، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ، ٤٨٢/١

واستجاب الله –عز وجل– لدعاء نوح عليه السلام وأراد سبحانه قبل أن يهلك القوم أن يهيئ لنبيه عليه السلام وللمؤمنين أسباب النجاة، فأمره – عز وجل– أن يصنع السفينة، وأعلمه أنه سيكون أثناء صنعها محاطاً بعنايته، يقول سبحانه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية ٢٧]. كما نهاه سبحانه أن يدعوا الكفار إلى النجاة في السفينة لأن الله تعالى قد حكم عليهم بالغرق، وإنما سينجوا من كان مؤمنا وزوجين من كل مخلوق غير مكلف.

ولما شعر نوح عليه السلام برغبته بنجاة ابنه لم يصرح في طلبه من ربه بذاك، وإنما تعرض لمقام الرحمة الإلهية، يقول سبحانه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [سورة هود، الآية ٤٥]. ففوض الأمر إلى الله وعرّض بالسؤال وهذا من كمال الأدب.

وهنا لا بدّ أن نبين أن "العَزمُ شَيءٌ وَوَجُودُ الصَّبْرِ شَيءٌ آخَرَ"(١)؛ فنوح عليه السلام عندما دعا على من كفر من قومه كان يعلم أن ابنه منهم، لأن الله تعالى أوحى إليه ﴿... أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة هود، الآية ٣٦]، كما علم أن الله تعالى طلب منه ألا يشفع لأحد منهم، يقول سبحانه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [سورة هود، الآية ٣٧]، لكنه حين رأى ابنه يغرق لم يصبر على ذلك فدعى الله تعالى أن يغفر له.

كما أن في الآيات دليل على قصور علم البشر ولو كانوا من الرسل، لأن من العلم ما استأثر الله به فلم يطلع عليه ملكا مقربا ولا رسولا مرسلا، لذلك قال نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة

(١) السعدي، مرجع سابق، ٤٨١/١

هود، الآية ٤٧]، " أي: أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم، مما قد استأثرت بعلمه"(١).

٤/ اللين في القول والمعاملة:

اللين خلق ينبغي أن يكون ملازماً للداعية في دعوته؛ بل وفي شأنه كله، فحري بالخلق أن يستجيبوا للداعية إن كان ليناً رفيقا في دعوته، يقول سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢). ونحن نلحظ في خطاب نوح لقومه أنه كرّر النداء بـ(يا قومي) عدة مرّات وكرات، مع ما في هذه اللفظة من جمال التلطف، يقول ابن كثير في معرض تعليقه على قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [سورة هود، الآية ٢٨]:" وَهَذَا تَلَطُّفٌ فِي الْخِطَابِ مَعَهُمْ وَتَرَفُّقٌ بِهِمْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ"(٣).

قال الرازي :" لَا بُدَّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ مِنَ اللِّينِ وَالرِّفْقِ وَتَرْكِ الْغِلْظَةِ"(٤). كما أن على الداعية أن يستخدم أسلوبي الاستمالة للحق والتنفير من الباطل، ويظهر ذلك في قول نوح عليه السلام لابنه: ﴿...يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة هود، الآية ٤٢]، فاستماله للركوب مع المؤمنين، ونفره من البقاء مع الكافرين، كما نلاحظ في الآية أن الله تعالى لم يعاتب نوحاً عليه السلام على دعوة ابنه للركوب فهذا مشروع، وإنما عاتبه على الاستغفار له بعد أن علم أنه مات على الكفر.

(١) الطبري، مرجع سابق، ٣٥٢/١٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٣) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠٨/١
(٤) الرازي، مرجع سابق، ٣٩/٣١

٥/ **الفصاحة والبيان:**

على الداعية أن يكون فصيحاً مبيناً في خطابه، فيتحدث بأيسر الكلمات لبيان مقصده؛ وكلما كان فصيحاً بليغاً كان له تأثير ووقع على نفوس المستمعين وقلوبهم. فنوح عليه السلام أجاب قومه بكلمات يسيرات لينفي عن نفسه الضلال ويثبت لشخصه الرسالة، يقول سبحانه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الاعراف، الآية ٦١]، كلمات قليلات ولكنها كانت في قمة حسن البيان والوضوح، " وَهَذَا شَأْنُ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ بَلِيغًا أَيْ فَصِيحًا نَاصِحًا أَعْلَمَ النَّاسِ باللَّه عَزَّ وَجَلَّ."[(١)]، وقد استخدم مع قومه كل عبارات البيان لإقناعهم. كما أن على الداعية "الاختصار في الحديث مع العصاة وعدم الإكثار من الأوامر؛ تجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [سورة نوح: ٣]، فليس عند العصاة صبر لكي يسمعوا محاضرة طويلة منمقة...، على ألا يكون الإيجاز مخلا"[(٢)].

وعلى الداعية إذا ذكر الشبهات ألا يوردها مفصلة؛ حتى لا تعلق بقلوب العامة، بل يكفي إيرادها مختصرة مع مراعاة إيضاحها؛ فكلّ الشبه التي أخبر بها الله تعالى عن نوح عليه السلام والمؤمنين معه – مما أورده كفار قومهم– لم يفصّل فيها، يقول سبحانه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [سورة هود، الآية ٢٧]، في حين أن ردّ نوح عليه السلام كان مفصّلا، يقول سبحانه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ/ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ/ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ/ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة هود: ٢٨ – ٣١].

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠٧/١

(٢) مسلم، مصطفى، وآخرون، **التفسير الموضوعي لسور القرآن**، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.٣٧٦/٨

المبحث الثالث

السمات المهارية

١/ التبشير والإنذار:

عندما دعا نوح عليه السلام قومه للإيمان والاستغفار رغبهم في ثمرات ذلك، فقال لهم: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا / وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [سورة نوح، الآيتان ١١-١٢]، إنها الحياة الرغيدة التي تقوم على الرزق الوفير، والعيش الكريم؛ فأمطار الخير لا تنقطع، وأموال بكلّ ألوانها من الذهب والفضة، وأولاد هم زينة الحياة وبهجتها، وطيب الإقامة والثمار والأنهار، وفوق هذا وذاك جنات لا يدرك وصفها العقول، عند رب العالمين.

ومع أن أعمارهم طويلة، بل طويلة جدا، فقد بشّرهم نوح عليه السلام بإطالة العمر، يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ / قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ/ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ/ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة نوح، الآيات:١ - ٤]. "أَيْ: يَمُدُّ فِي أَعْمَارِكُمْ وَيَدْرَأُ عَنْكُمُ الْعَذَابَ الَّذِي إِنْ لَمْ تَنْزَجِرُوا عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ، أَوْقَعَهُ بِكُمْ"[١].

وأحيانا يكون الأنسب في التعامل مع العاصي هو الإنذار، فهو الذي يحمله على الكفّ عن الفجور والعصيان، دون إغفال الدور المهم للترغيب في الدعوة؛ ومن ذلك ما قام به نوح عليه السلام من التخويف والتحذير من إخفاء عذاب الله تعالى، يقول سبحانه:﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ / قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ٢٣١/٨

اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [سورة هود، الآيتان ٣٢ - ٣٣]، فلم يخبرهم بموعد العذاب، "ومن لم يعلم متى يهجم عليه عدوُّه كان أشد حذراً"[١]. قال ابن عطية: "التَّخْوِيفُ وَالتَّرْجِئَةُ وَالتَّلَطُّفُ بِالْإِنْسَانِ بِأَنْ تُجِلَّهُ وَتُنَشِّطَهُ، وَتَجْعَلَهُ بصورة من قَبِل الْفَضَائِل وَنَحْو هَذَا[٢]".

إن الإنذار وسيلة ناجعة وفعالة للوصول إلى التقوى، وتأمل معي الآية: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٣] يقول الرازي: "بيَّن تعالى ما لأجله يبعثُ الرسول، فقال تعالى: ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾، وما لأجلِه ينذر، فقال: ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾، وما لأجله يتَّقون، فقال تعالى: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة [٣]".

٢/ التنويع في أساليب الدعوة:

قام نوح عليه السلام بما أمره به ربه خير قيام، فدعاهم ليلا ونهارا سرا وعلنا، يقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا / فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا / وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا/ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا/ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا / فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [سورة نوح، الآيات: ٥ - ١٠]، "فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا فلم ينجح فيهم، بل

(١) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، **زاد المسير في علم التفسير**، المحقق: عبد الرزاق المهدي (دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٢ هـ)، ١٥٤/٣

(٢) أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، (بيروت - دار الفكر، ١٤٢٠هـ)، ٦١٣/٦

(٣) الرازي، مرجع سابق، ١٦٧/٧

استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم"[(١)].

لقد علم نوح أن من الناس من يكون وعيه وإدراكه في النهار أكثر من الليل بحسب طبيعة نشاطه وسعيه في الحياة، ومنهم من يكون أصفى ذهناً لسماع الدعوة وحججها وأكثر تقبلاً للموعظة بالليل حيث يغلب السكون والتأمل، وهو ما لا يكون بالنهار. كما أنه علم أن من الناس من يستنكف عن قبول دعوته إذا وجهت إليه جهراً أمام الملأ وفي العلن؛ فأسر إليه بدعوته ليحرره من قيود وتأثيرات العقل الجمعي العام، وفي ذات الوقت لم يترك الدعوة العلنية لجماهير الناس لتنشيط الحوار المجتمعي لتثبيت المواقف وتمييز الاتجاهات[(٢)].

كما أن نوحاً عليه السلام لاحظ اختلافَ طبائع الناس، فوجد أن منهم مَن إذا وُجِّهت له الدعوة جهرًا أمام الناس، تأخذُه العزة والأَنَفة، ولا يمتثلُ للأمر المدعُوِّ إليه؛ تكبرًا أو تعاليًا، وصلفًا وغرورًا، وخوفًا من معايرة أهله وعشيرته، فهذا إذا دُعِي سرًّا، فإنه قد يمتثل إليه، وقد يخفيه سرًّا فترة من الزمن، وكان عليه السلام يُوجِّه الدعوة جهرًا لمن يلمس فيه الشجاعة والاحترام وعدم المبالاة والخوف من أحد، طالما اقتنع بصحة ما أقدم عليه [(٣)].

٣/ الزهد عمّا في أيدي الناس:

خاطب نوح عليه السلام قومه بكل وضوح: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [سورة

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ١٠٧/١

(٢) الدميري، أمين، **تنوع الأساليب في دعوة الأنبياء**، مقال منشور بمجلة البيان، العدد ٣٢٧، ذو القعدة ١٤٣٥هـ، سبتمبر ٢٠١٤م.

(٣) عبدالوهاب عبدالعاطي عبدالله، **مناهج أولي العزم من الرسل**؛ ط١، ١٤١٢هـ دار الطباعة المحمدية، ص٣٢

هود: ٢٩]. يقول الطبري: "وهذا أيضًا خبرٌ من الله عن قيل نوح لقومه، أنه قال لهم: يا قوم لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، مالا أجرًا على ذلك، فتتهموني في نصيحتي، وتظنون أن فعلي ذلك طلبُ عرض من أعراض الدنيا، (إن أجري إلا على الله)، يقول: ما ثواب نصيحتي لكم ، ودعايتكم إلى ما أدعوكم إليه، إلا على الله، فإنه هو الذي يجازيني، ويثيبني عليه [(١)]".

ثم اتهموه مع أتباعه أن دعوته لها أهداف أخرى، وأشاروا بطرد أتباعه والكف عن دعوته، وعندما رفض هددوه بالرجم قال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ / إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ / قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآيات: ١١٤ – ١١٦]. وعندما ربط القوم بين الأموال والأتباع جاء ردّه عليه السلام؛ أولا بنفي الأجر، ثم بالدفاع عن الأتباع، ثم إخبارهم بعد ذلك بأنه لا يملك الخزائن، فهو لم يطمع فيما عندهم من مال، ولا يسألهم على نصحه لهم أجرا، وعلى هذا فالضعفاء الذين يؤمنون به لا يطمعون في مال عنده أخذه من القوم، ولا يطمعون في كنوز يخفيها؛ لأنه ليس عنده من هذه الكنوز شيئا: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ / وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ / وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود: ٢٩-٣١].

ويقول تعالى أيضاً على لسان نوح عليه السلام : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس، الآية ٧٢]، فعلى الداعية أن لا ينظر إلى ما في أيدي الخلق، وألا يأخذ أجرا على دعوته – إن كان مستغنيا –، ولا يطلب شيئا لقاء ما يقوم به من هذا الأمر العظيم، وهذه الرسالة الكبيرة.

(١) الطبري، مرجع سابق، ٢٢٥/١٥

٤/ البدء بالأهم من الأولويات:

البداءة بالأهم من أعظم سمات الداعية؛ فنوح عليه السلام بدأ بالتوحيد، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٥٩]، فعلى الداعية أن يشخّص أولاً أمراض مجتمعه ويصنفها ثم يبدأ بمعالجة أهمها وأخطرها.

إن قضية التوحيد هي القضية التي انشغل وبدأ بها كلّ الرسل والأنبياء، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾[سورة النحل، الآية: ٣٦]، أي: "ولقد بعثنا أيها الناس، في كل أمة سلفت قبلكم رسولاً، كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له بالطاعة، وأخلصوا له العبادة [١]". ويقول سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنَاْ فَاعبُدُونِ ﴾[سورة الأنبياء، الآية: ٢٥]، "فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة [٢]"، فهذه هي دعوة الأنبياء، كل منهم يواجه قومه بالدعوة إلى التوحيد، فما بعث نبي إلا وبدأ مع قومه بهذه الدعوة[٣].

و"ما من أمة متقدمة، أو متأخرة، إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له [٤]"، يقول ابن حجر: "ووقعت البداءة بهما – أي بالشهادتين – لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما[٥]"، وهذا فيه تقرير منهج شامل، لجميع الأنبياء عليهم السلام، يسعهم ويسع الدعاة من بعدهم؛ لتؤكد أن القضية الأولى، في جميع الدعوات، من لدن أول الأنبياء إلى آخرهم، يجب أن تبدأ بالتوحيد، أياً كانت الظروف والأحوال التي يعيشها هذا المجتمع، ومهما

(١) الطبري، مرجع سابق، ١٠٣/١٤
(٢) السعدي، مرجع سابق، ٥٩/٢
(٣) العدوي، محمد أحمد، **دعوة الرسل إلى الله تعالى**، ط١، (دار المعرفة–بيروت، ١٩٩٧م)، ص١
(٤) السعدي، مرجع سابق، ٥٩/٢
(٥) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ)، ٣٥٨/٣

اختلفت الأزمنة والأمكنة. وهي قضية محسومة منتهية، لا مجال فيها لاجتهاد بشر، ولا تتأثر بالبيئة، ولا تختلف باختلاف الزمان أو المكان؛ لأنه أساس كل دعوة، ومنطلق كل داعية. وأهم أمر يُصْلَح هو إصلاح علاقة العبد بربه، ثم بعد ذلك يصلح ما فسد من أمر المجتمع كل بحسبه.

ويهمنا من هذا أن نقرر أن الداعية يبدأ دائماً – وفي كل الأحوال – بإصلاح العقيدة، ثم يصرف همه إلى معالجة الأمراض الموجودة في المجتمع الذي يدعو فيه [1]، وإذا كان هناك أمراض متفاوتة بدأ بأشدّها فتكاً وأعمقها ضرراً على المجتمع.

كما أن على الداعية عدم الالتفات إلى الدعاوى والشبهات والتركيز على الهدف، فنوح عليه السلام لم يثنه عن قصده اتهام قومه له بالضلال أو الجنون. وقد أفرد البخاري في صحيحه بابا أطلق عليه: باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة؛ يقول سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٦٢]. يقول الرازي: "فذكر المقصود من الرسالة، وهو التبليغ والنصيحة ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾، والفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصيحة، هو أن تبليغ الرسالة معناه أن يُعرِّفهم أنواع تكاليف الله وأقسام أوامره ونواهيه، وأما النصيحة، فهي أن يُرغِّبه في الطاعة، ويحذره من المعصية، ويسعى في تقرير ذلك بالترغيب والترهيب بأبلغ الوجوه [2]".

٥/ الحوار الفعّال والإقناع:

استمر نوح عليه السلام في دعوته، محاولاً إقناع قومه بأسلوب هين لين، وأخذ يحاورهم ويجادلهم، يقول سبحانه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ/ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ

(١) العدوي، مرجع سابق، المقدمة
(٢) الرازي، مرجع سابق، ١٦٤/٧

إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [سورة هود، الآيتان ٢٨ و٢٩]. لم تؤثر هذه الكلمات في نفوس القوم، بل ردوا عليه في عناد: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ / قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ / وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة هود، الآيات :٣٢-٣٤].

إن الحوار من أهم الوسائل الدعوية الناجحة، وهي سبب التآلف والرحمة وحل المشاكل أو تقليصها في نطاق ضيق، وفي قصة نوح عليه السلام مع ابنه مثال على ذلك، حيث ابتدأ نوح عليه السلام حواره مع ابنه بقوله (يا بني) فأظهر له الشفقة الأبوية وصدق النصيحة وأنه لا غرض من وراء ذلك إلا رجاء النجاة له من المهالك، يقول سبحانه: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة هود، الآية ٤٢]. كما يتضح من الآية أن على الداعية اختيار الوقت المناسب والحال التي يرجو فيها المربي أن يكون المخطئ بعيدا عن أي تأثير خارجي يؤثر في اتخاذه للقرار الصائب، فقد خاطب نوح عليه السلام ابنه حين كان في معزل، أي منفردا، رجاء أن يذعن للحق متى ما ظهر له واتضح سبيله وأعمل قلبه وعقله، ولا يتبع أهواء الضالين المضلين.

وما جرى مع نوح عليه السلام وابنه يجسّد الأسلوب الحواري بركنه الهام، حيث ابتدأ نوح عليه السلام حوار مع ابنه بكلمة ﴿يا بنيّ ﴾ وهذه الكلمة تظهر للابن الرحمة الكاملة والشفقة الصادقة، وأنه لا مصلحة ذاتية مرجوة من وراء ذلك، وإنما عاطفة الأبوة والخوف من سوء المآل حين قال له: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾، فأرعى الابن لأبيه سمعه حين استمال قلبه ذلك النداء المشفق فأجاب أباه قائلا: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾، وهذا هو التصور الخاطئ الذي بنى عليه هذا الابن قراره فاتبع سبيل الكافرين، فأوضح له أباه نوح عليه السلام سبيل النجاة الحقيقي بأن يتبع الحق فتناله رحمة الله عز وجل كما نالت جميع المؤمنين بركوبهم السفينة، ونجاتهم من الغرق، فقال نوح عليه السلام لابنه: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

وظهر في حوار نوح عليه السلام مع ابنه أيضاً أهم ركن في الحوار، ألا وهو الاستماع والإصغاء، ولن يصل الحوار إلى نتيجة إيجابية مرجوة من قِبل الداعية إلا إذا توفر هذا الركن المهم، ويدل على ذلك ما ذكر في قصة قوم نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [سورة نوح، الآية ٧] لأنهم لو أصغوا لدعوة نوح عليه السلام ما وسعهم غير اتباعه والاهتداء بهديه.

٦/ الشجاعة والمصارحة بالحق:

إن من أعظم الواجبات الملقاة على عاتق الداعية هي إظهار الصواب للمخطئين، سواء كانوا مدركين لذلك الخطأ أو أنهم فعلوه متوهمين صوابه، وإبراز نتائج فعلهم وسوء العاقبة إن استمروا على ذلك ولم يأبهوا بتصحيح خطأهم؛ فالإنسان يخطئ ويصيب وعليه أن يسلم بالخطأ عندما يتبين له وجه الصواب، ويشكر لمن أرشده ونبهه لخطئه.

إن "الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر"(١)؛ فقد اتُّهم أتباع نوح عليه السلام بأنهم لا رأي لهم، وانهم اتبعوه ابتداء، وهذا لا يقدح فيهم، فالحقّ أحقّ أن يتّبع، ولا يدري الإنسان متى يفجؤه الأجل، فأنعم بسرعة استجابتهم للحق.

والشجاعة تكون في قول الحق وفعله؛ ولا أدل على ذلك ما حدث في قصة نوح عليه السلام حين أوحى الله عز وجل له بصنع السفينة، فواجهه قومه بالسخرية، لكنه لم يلتفت لسخريتهم ومضى فيما أمر به، بل وردّ عليهم بشجاعة، وأنه يسخر منهم كما يسخرون. فعلى الداعية أن يكون شجاعا في الدفاع عن الحق وإيصاله للناس، وألا يضعف أو تخور قواه أمام أهل الباطل، بل يستمد القوة من الله عز وجل، فالحق يزهق الباطل لا محالة. وهذا نوح أيضاً يردّ على المستهزئ بمثل ما استهزأ به، يقول سبحانه: ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ١٠٨/١

مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [سورة هود، الآيتان ٣٨ و ٣٩].

ولقد صدع نوح بالحق بلا مواربة لما استنكروا بشريته، وقال لهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ لقد أنكر تعجبهم من دعواه الرسالة، ودعوته إياهم إلى الدين الحق، وقال: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم؛ رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم؛ لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به [(١)].

٧/ احترام أهل التقوى بدون تقديس:

من الأخطاء الفادحة التي وقع فيها قوم نوح شدّة تعلقهم المذموم بالرجال الصالحين، والذي أودى في عاقبته إلى التقديس والعبادة لهم، ولذلك فإن على الداعية أن يحذر من الانجرار وراء تقديس الشخصيات، وعليه تنبيه الناس بمعرفة حجم الخطأ بالتعلق بالأشخاص وتمجيدهم والتغني بمآثرهم، بل الصواب أن نقتدي بالحق الذي جاؤوا به، وأن نتخلق بأخلاقهم ونقتفي أثرهم لنصل إلى ما وصلوا إليه.

يقول ابن كثير: "إن وَدًّا كان مُحَبَّبًا في قومه، فلما مات عكفوا حول قبرِه في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلمَّا رأى إبليسُ جزعَهم عليه تشبَّه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعَكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أُصوِّر لكم مثلَه فيكون في ناديكم فتذكرونه به؟ قالوا: نعم، فصوَّر لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم يذكرونه، فلما رأى ما بهم مِن ذِكرِه، قال: هل لكم أن أجعل في منزل كلِّ واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم، قال: فمثَّل لكل أهل بيت تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناؤهم،

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ٢٢٣/٢

فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: وتناسلوا ودرَس أمرُ ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله[1]".

كما أن الخوف من التعلق لا ينافي الاحترام والتقدير والتبجيل والتوقير، بل هو الوسط بين الغلو في الصالحين وجفاءهم؛ فهذا النبي ﷺ نهى أصحابه رضي الله عنهم عن الغلو فيه بأي نوع من أنواع العبادة، فقال:" لاَ تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ "[2]، وهو نفسه ﷺ الذي أقرّ اقتتالهم على وضوئه وهيبة الصحابة له؛ ففي صلح الحديبية حين " ...رجع عروة إلى أصحابه، قال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيما له..."[3].

وبالجهة المقابلة، نرى أن أتباع نوح –الذين احتقرهم الملأ– رفع النبي من مكانتهم، ودافع عنهم أيما دفاع، ثمّ أكرمهم ببناء السفينة لإنقاذهم من دون الناس، ولذلك فإن على الداعية أن يرفع أهل التقى في أعين الآخرين، ويحط من قدر الكفار وإن كانوا من المترفين؛ قال الرازي:" لَا بُدَّ مِنْ تَعْظِيمِ الْمُؤْمِنِ الْبَرِّ التَّقِيِّ وَمِنْ إِهَانَةِ الْفَاجِرِ الْكَافِرِ، فَلَوْ قَلَبْتَ الْقِصَّةَ، وَعَكَسْتَ الْقَضِيَّةَ وَقَرَّبْتَ الْكَافِرَ الْفَاجِرَ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ، وَطَرَدْتَ الْمُؤْمِنَ التَّقِيَّ عَلَى سَبِيلِ الْإِهَانَةِ كُنْتَ عَلَى ضِدِّ أَمْرِ اللَّه تَعَالَى، وَعَلَى عَكْسِ حُكْمِهِ"[4]. ويظهر جلياً شدة

(١) ابن كثير، قصص الأنبياء؛ ط١، مكتبة الصفا، ٢٠٠١م / ١٤٢٢هـ. ص ٤٥

(٢) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، ١٦٩/٨، الحديث رقم ٦٨٣٠

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ١٩٥/٣، الحديث رقم ٢٧٣١

(٤) الرازي، مرجع سابق، ٣٤٠/١٧

دفاع نوح عليه السلام عنهم، ورفعته لمكانتهم فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ / قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ / إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ / وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ / إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الشعراء، الآيات: ١١١ – ١١٥]، قال المفسرون: لقد ذكروا له أن متبعيه من العبيد والفقراء والسفلة وأرباب الحرف الدنيئة. فنفى عليه السلام علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به[١]، وقال: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكِل سرائرهم إلى الله عز وجل [٢]؛ "فلم يكن المالُ يوماً مظهراً من مظاهر التكريم أو الإهانة"[٣]، ولست أطرد من أقبل علي وآمن بي، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني.

وفي مجمل رده عليه السلام كما جاء في سورة هود قال: ﴿وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ / وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩ – ٣٠]، ونلاحظ في النصّ القرآني أن المترفين أطلقوا على أتباعه لفظ الأراذل، فغيّر عليه السلام اللفظ إلى (الذين آمنوا) تعظيما لإيمانهم وارتباطهم بربهم.

وبعد أن حطم عليه السلام الوثنية في أساطيرهم، بدأ في تحطيم ميزانهم الذي أقاموه، وبه قاموا بتصنيف خلق الله فقال: ﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ وفي هذا إشارة إلى ما كان يعتقده الملأ الذين كفروا من قومه. وبنوا عليه سنة الأشرفية وطريقة السيادة. وهو أن أفراد الإنسان تنقسم إلى قسمين: الأقوياء والضعفاء؛ أما الأقوياء فهم أولو الطول المعتضدون بالمال والعدة، ولهم النعمة والكرامة، وأما الضعفاء فهم مخلوقون لأجلهم، وبالجملة كان معتقدهم أن الضعيف في المجتمع إنسان

(١) الطباطبائي، مرجع سابق، ٢٩٦ / ١٥

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ٣٤٠ / ٢

(٣) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **مع قصَصِ السَّابِقِينَ فِي القُرْآنِ**، (دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧) ص ٥٩٢

منحط أو حيوان في صورة إنسان. وهو داخل المجتمع يشارك في الحياة ليستفيد الشريف من عمله وينتفع من كده، والضعيف في المجتمع محروم من الكرامة، مطرود عن حظيرة الشرافة. فهذا هو الذي كانوا يرونه، وكان هو المعتمد عليه في مجتمعهم، وقد رد نوح عليه السلام ذلك، وبين خطأهم في معتقدهم بقوله: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي أن أعينكم إنما تزدريهم وتستحقرهم، وتستهين أمرهم؛ لما تحس ظاهر ضعفهم وهوانهم، وليس هذا الأساس في إحراز الخير ونيل الكرامة، بل الأساس في ذلك أمر النفس وتحليها بحلي الفضيلة، ولا طريق لي ولا لكم إلى العلم ببواطن النفوس وخبايا القلوب، فلله وحده ذلك، وليس لي ولا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير والسعادة [1].

٨/ روح التحدّي والمجابهة:

بعد أن رأى نوح عليه السلام أنّ أسلوب اللين لم ينفع مع قومه غيّر ذلك إلى أسلوب التحدي لعلهم يرون إصراره على دعوة الحق فيذعنون، وهذا يدلّ على ثقة الداعي بدعوته، فلو كان لنوح عليه السلام أدنى شك لما طلب من قومه أن يجمعوا أمرهم على إذايته إن استطاعوا، يقول سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ / فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس، الآيتان ٧١ و٧٢] فتحداهم قائلا:" وَلَا تَجْعَلُوا أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ مُلْتَبِسًا، بَلِ افْصِلُوا حَالَكُمْ مَعِي، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ مُحِقُّونَ، فَاقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تنْظرُونَ، أَيْ: وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً، أَيْ: مَهْمَا قَدَرْتُمْ فَافْعَلُوا، فَإِنِّي لَا أُبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ، لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ"[2]. والله تعالى يحقق الصدق

(١) الطباطبائي، مرجع سابق، ٢٩٦ / ١٠

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ٢٨٣/٤.

على لسان أوليائه؛ فقد تحقق ما حذرهم منه نوح عليه السلام، ونجى الله نوحاً ومن معه في السفينة، وأُهلك القوم الكافرون، يقول سبحانه: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [سورة هود، الآية ٩٣].

ونجد أيضاً في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ / قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن نوحاً عليه السلام ردّ الطعون على أصحابها، حتى لا يغترّ بهم من هم وراءهم فيصدقوها، وينصرفوا عن الحق؛ فقد قال نوح عليه السلام للملأ الأكابر بكلّ وضوح: ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين؛ أي أرسلني إليكم لسوق الخير ودفع الشر عنكم، فقد نفى عن نفسه الضلالة، وأثبت لها ما هو أعلى منصبا وأشرف رفعة وهو أنه رسول الله إليه [(١)].

وكثيراً ما جاءت الآيات في قصة قوم نوح تبيّن أن الذين تولوا كبر المجادلة والمجابهة والخطاب هم (الملأ)، والمقصود هنا: أشرافهم ورؤساؤهم [(٢)] وهم أيضاً الوجوه وذوو الرأي [(٣)]. قال الفراء: الملأ الرجال في كل القرآن لا تكون فيهم امرأة [(٤)]. ويرى ابن عاشور أن الكلمة مشتقة من (الملء) وهو "تعمير الوعاء بالماء ونحوه، وأنه مؤذن بالتشاور لقولهم: تمالأ

(١) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، ط١، (دمشق: دار الخير، ١٤١٢هـ)، ٢٧٩/٢

(٢) الطبري، مرجع سابق، ٦١٠/١ ؛ السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد، **تفسير السمرقندي (بحر العلوم)**، تحقيق: علي معوض، وعادل أحمد، وزكريا النوتي، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ)،٢١٨/١؛ البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، حققه: محمد النمر – عثمان ضميرية- سليمان الحرش، ط٤، (السعودية: دار طيبة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م)، ٢٩٥/١

(٣) أبو حيان، مرجع سابق، ٢٥٨/٢

(٤) أبو حيان، مرجع سابق، ٢٥٨/٢؛ ابن الجوزي، مرجع سابق، ٢٤١/١

القوم إذا اتفقوا على شيء[(١)]". ويعيد المفسرون سبب تسمية الاشراف والقادة بالملأ إلى "أن الناظر إذا نظر إليهم امتلأت عينه هيبة منهم[(٢)]"، فهم "يملئون العيون هيبة ورواء[(٣)]"، و"لأن هيبتهم تملأ الصدور"[(٤)]، و"يملئون المكان إذا حضروه[(٥)]". وقيل: "لأنهم يتمالئون: أي يتعاونون بما لا مزيد عليه[(٦)]". بينما يرى القرطبي أن سبب ذلك لأنهم "ممتلئون مما يحتاجون إليه منهم[(٧)]".

٩/ الحرص على دعوة الأقربين:

يتضح من قصة نوح عليه السلام حرص الأب على نصح ابنه حتى آخر لحظة، فلا يعلم الداعية في أي وقت تحين الهداية؛ ففي وسط تلك الأمواج المتلاطمة التي وصفها سبحانه بأنها كالجبال، تحركت عاطفة الأبوة عند نوح عليه السلام وتذكر ابنه، فدعاه ليركب معه في السفينة، ولكن ظلمة الكفر طمست على بصيرته، وأصر على عصيانه، وظن أنه سيلجأ إلى جبل مرتفع ولن يصل الماء إليه، فلم يستجب الولد لنداء أبيه، وظن أن ما يجري عوارض طبيعية عاديّة، وكان يأمل أن ينجو بدون ركوب السفينة، فقال لأبيه: سأجأ إلى جبل لا

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر التونسي، **التحرير والتنوير**، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م)، ٤٨٥/٢

(٢) السمرقندي، مرجع سابق، ٢١٨/١

(٣) الفخر الرازي، مرجع سابق، ١٨٤/٦؛ أبو حيان، مرجع سابق، ٢٥٧/٢

(٤) الألوسي، شهاب الدين محمود البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، د.ط، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ١٦٥/٢

(٥) أبو حيان، مرجع سابق، ٢٥٧/٢؛ الفخرالرازي، مرجع سابق، ١٦٤/٦

(٦) الألوسي، روح المعاني، ١٦٥/٢

(٧) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: سمير البخاري، (الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م)، ١٠١٥/١؛ أبو حيان، مرجع سابق، ٢٥٧/٢

يصل الماء إليه، فرد عليه: ليس هناك أية قوة تحول بين أحد وبين الغرق الذي قدره الله اليوم على الكافرين، وأبى الابن أن يستجيب لنداء أبيه، فكان من المغرقين، يقول سبحانه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ٤٢ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [سورة هود، الآيتان ٤٢ و ٤٣]. وبذلك هلك الكفار من تأثير الطوفان. وبعدها أمر الله الأرض أن تبلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر، واستوت سفينة نوح عليه السلام ومن معه على جبل يسمى الجودي، يقول سبحانه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود، الآية ٤٤].

ثمّ أن نوحاً عليه السلام أشفق على ولده، فسأل الله -عز وجل- بعد ما تحقق من هلاكه أن ينجيه، لكن الله تعالى لا ينجي القوم الكافرين، وقد عاتب سبحانه نبيه عليه السلام على أن دعا لكافر أن ينجيه، وذكّره أن عقيدة البراء من الكفار من أساسيات التوحيد، وأنها أعلى وأقوى من رابطة الدم، يقول سبحانه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة هود، الآيتان ٤٥ و ٤٦]، لكنّ نوحاً عليه السلام سرعان ما رجع واستغفر ربه وأناب إليه، يقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة هود، الآية ٤٧].

إن البيت المؤمن قد لا يخلو من نماذج فاسدة، فنوح عليه السلام على جلالة قدره وقوة عزمه ظهر في بيته من خالف أمر ربه، فكفرت زوجته وابنه فكانا من المهلكين، وصارت زوجته مثلاً للكافرين إلى يوم يبعثون: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ.﴾ [سورة التحريم، الآية ١٠].

الخـاتمـــة

بعد جولتنا المباركة في تلك السمات الرفيعة.. آن لنا أن نستروح بذكر **أهمّ النتائج**، وهي كالآتي:

- يرى كثير من المؤرخين أن إدريس قبل نوح، وهذا غير صحيح، فلا رسول قبل نوح إلا آدم فقط.
- على الداعية اختيار النماذج الإنسانية ذات التجارب المفعمة بألوان الكفاح لتكون له قدوة.
- الداعية لا يقوم بالحكم على التصرف قولاً كان ذلك التصرف أو فعلاً إلا بعد أن ينظر في مآله ونتائجه ويقدر ما سيتمخض عنه تطبيق ذلك التصرف.
- اعتبار المآلات من أرقى أنواع استشراف المستقبل والتخطيط له، كما أنه يعين في باب سد الذرائع.
- أساليب أهل الباطل لمقاومة أهل الحقّ تتكرر على مرّ العصور والأزمان، وهي أربعة أساليب: استخدام القوة والتهديد أو السخرية والاستهزاء أو الاتهامات المغرضة أو الشبهات الباطلة.
- وصل الحال بقوم نوح حتى كان الآباء يُوصُون أبناءهم بالتمسُّك بعبادة الأصنام وعدم التخلِّي عنها.
- كرّر نوح عليه السلام النداء بـ(يا قومي) عدة مرّات، لما في هذه اللفظة من جمال التلطف واللين.
- إذا ذكر الداعية الشبهات فعليه أن ألا يوردها مفصّلة؛ حتى لا تعلق بقلوب العامة، في حين أن ردّه عليها ينبغي أن يكون مفصّلا.

- على الداعية أن يلاحظ اختلافَ طبائع الناس، وينوّع في أساليب دعوته بحسب حال المدعو.
- يجب أن يبدأ الداعية بالتوحيد، أياً كانت الظروف والأحوال التي يعيشها هذا المجتمع، ومهما اختلفت الأزمنة والأمكنة. وهي قضية محسومة منتهية، لا مجال فيها لاجتهاد بشر.
- الآيات في قصة قوم نوح تبيّن أن الذين تولوا كبر المجادلة والمجابهة والخطاب هم (الملأ)، والمقصود بهم أشرافهم ورؤساؤهم، ونوح عليه السلام ردّ عليهم بشجاعة، حتى لا يغترّ بهم من هم وراءهم.
- البيت المؤمن قد لا يخلو من نماذج فاسدة، فنوح عليه السلام على جلالة قدره وقوة عزمه ظهر في بيته من خالف أمر ربه، فكفرت زوجته وابنه فكانا من المهلكين.

والله المستعان.. في البدء والختام،،

المراجع والمصادر

- الألوسي، شهاب الدين محمود البغدادي، د.ت، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، حققه: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، السعودية: دار طيبة، ط٤
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ١٤٢٢ هـ، **زاد المسير في علم التفسير**، المحقق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتاب العربي، ط١
- الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم النيسابوري، ١٤١١هـ، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، ١٣٧٩هـ، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، بيروت: دار المعرفة.
- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ١٤٢٠هـ، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت - دار الفكر.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، ١٤٢٨هـ، **مع قصَصِ السَّابِقِينَ فِي القُرْآنِ**. دمشق: دار القلم، ط٥
- الدميري، أمين، **تنوع الأساليب في دعوة الأنبياء**، مقال منشور بمجلة البيان، العدد ٣٢٧، ذو القعدة ١٤٣٥هـ، سبتمبر ٢٠١٤م

- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي، ١٤٢٠ هـ ، **مفاتيح الغيب**. بيروت: دار إحياء التراث، ط٣
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، ١٤٢٠هـ، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد، ١٤١٣هـ، **تفسير السمرقندي (بحر العلوم)**، تحقيق: علي معوض، وعادل أحمد، وزكريا النوتي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١
- السنوسي، عبد الرحمن بن معمر، **اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات دراسة مقارنة في أصول الفقه ومقاصد الشريعة**، ١٤٢٤هـ، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١
- السيد، عاطف، **التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمه**. القاهرة: دار الكتاب الحديث
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، ١٤١٥ هـ، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**. بيروت: دار الفكر.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، ١٤١٢هـ، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دمشق: دار الخير، ط١
- الطباطبائي، محمد حسين، **الميزان في تفسير القرآن**،١٤١٧هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-بيروت
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، ١٤٢٠ هـ، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المحقق: أحمد محمد شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١
- ابن عاشور، محمد الطاهر التونسي، ١٩٩٧م، **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع.
- عبدالوهاب عبدالعاطي عبدالله، **مناهج أولي العزم من الرسل**؛ ١٤١٢هـ ، دار الطباعة المحمدية، ط١

- العدوي، محمد أحمد، **دعوة الرسل إلى الله تعالى**،١٩٩٧م، دار المعرفة-بيروت، ط١
- ابن العربي، محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الاشبيلي،١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣
- فضل، حسن عباس، ١٩٨٧م، القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته. دمشق: دار الفرقان، ط١
- الفورتيه، أحمد جهان، ١٩٩٤م، **القرآن أصل التربية وعلم النفس**. حلب: دار الملتقى للنشر، ط١
- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: سمير البخاري، الرياض: دار عالم الكتب.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، ١٤٠٧هـ، **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط- عبد القادر الأرناؤوط، الكويت : دار العروبة، ط٢
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، ١٤٠٧ هـ، **البداية والنهاية**. بيروت: دار الفكر.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، ١٤٢٠هـ، **تفسير القرآن العظيم**، المحقق: سامي بن محمد سلامة. مصر: دار طيبة للنشر، ط٢
- مسلم، مصطفى، وآخرون، ١٤٣١هـ، **التفسير الموضوعي لسور القرآن**، جامعة الشارقة.